# ماذا بقيّ من البنويّة ؟*

فرانسوا دوس

ترجمة محمد يحياتن

لقد كان لصيت البنويّة في الخمسينيات والستينيات من القوة ماجعلها تتماهى مع التاريخ الفكري الفرنسي كله منذ 1945. فلم يكن آنذاك من خلاص خارج ما كان يتبدى بوصفه نظرا جديدا للعالم والإنتاج الرمزي للمجتمع. ولما كانت البنويّة لحظة هامة للفكر النقدي وترجمانا لإرادة تحرر العلوم الاجتماعية الفتية الباحثة عن الشرعية العلمية والمؤسساتية، فقد استثارت حماسا جماعيا جما لدى الانتلجانسيا الفرنسية برمتها.

بيد أنه عند مشارف الثمانينات، وعلى نحو مفاجئ، ارتج البنيان كله: إذ اختفى جل أبطال هذه المغامرة الفكرية كما اختفت معهم آثارهم التي سارع العهد الجديد إلى طيّها، وقد رافق ذلك شعور قوي بأن عهدا برأسه قد ولىّ، وهكذا تم تحاشي إجراء مراسيم التشييع الضرورية بدافع الاعتراف بالفضل لهذه المرحلة التي تعتبر إحدى أخصب فترات تاريخنا الفكري.

تُرى هل نحن إزاء معجزة أم سراب؟ للإجابة على هذا السؤال، لابد من العودة إلى هذه الصفحة من تاريخنا، ماذا بقي منها اليوم؟ إذا غضضنا الطرف عن بعض التوجهات وبعض أشكال النفي المبدئية مثل نفي الذات أو التاريخية Historicité فإنه يمكننا القول بأن جزءا هاما من الدرس البنوي قد استوعب وتُمثّل، ولعل الدرس الأكبر المستخلص هو أن التواصل ليس شفافا في ذاته أبدا.

## عودة الذات المحوّلة

إن قراءة النصوص التي طغت في المرحلة البنوية قد تجاهلت الذات، ومن ثم أمكنها الانخراط والتجذر في عالمية مجردة وفي خطاب عديم الذات، وكان على الباحثين الإبانة عما هو ثاو ورابض في النص ليس إلا ؛ بيد أنه بالعودة إلى المعنى وليس الصورة أو الشكل Forme فحسب، استرجعت الذات منذ منتصف السبعينيات منزلتها المركزية في الجهاز الفكري: فلم يعد المعنى مردودا إلى الدليل كما لم يعد المؤلف مردودا إلى الكاتب Scripteur غير أن هذا لايعني العودة ثانية إلى عبادة الذات صاحبة السيادة المطلقة.

إن المشكل المطروح هو تجديد النظر في الذات بعد اكتشاف اللاوعي والمُحَدِدات التاريخية والاجتماعية، دون إغفال هذه الأخيرة.

لقد بتّ فلاسفة الأنسية humanisme، مثل سارتر، في هذه القضية بتأكديهم على أسبقية الوجود على الماهية. أما أ. رونو A.Renault، فيرى بأن الذات يجب أعمال النظر فيها من جديد إنطلاقا من مفصلتها حول مبدأ الإستقلالية الذاتية، وهذه النزعة الإنسية تسعى إلى التفكير في منزلة الإختلافات من خلال الثوابت التي تتجلى في صلبها، وهذا عينه ما يمكن من إحياء طموح الجيل الأول من البنويين، ذلكم الجيل الذي يمثله ليفي ستروس الذي سعى إلى إكتشاف العام وراء الخاص.

## الذات المنشطرة المحدّدة تاريخيا

إن النظر والتفكير في الذات لايمكنه أن يتجاهل أشكال التكييف والاسترقاق المختلفة التي تتعرض لها. فهناك مكتبسات الفرويدية أساسا التي قام لاكان Lacan بتمحيصها. فلم تعد تسمح بالنظر إلى الذات بحسبانها واقعا أو وحدة غير قابلة للتجزئة وشفافة، بل على عكس ذلك، يتعين تناولها من حيث هي كيان منشطر ومعتم، ولايمكننا والحالة هذه الإبانة عن الذات دون تأسيسها بنسياننا بأنها تتجاوز موضوع رغباتها وبأنها أساسا رهينة الدال Signifiant: «كل أولئك الذين يقولون: الذات، الذات؟ مثلهم كمثل دي غول De Gaulle حين كان يصدع ذات يوم: أوربا! أوربا! ساخرين من لوكانوي Le canuet: إنهم يبدون لي تافهين لأنه كلام/ موضوع لم يفكر فيه إطلاقا» (1)

وفضلا عن هذا لايمكن إعمال النظر في الذات دون إحالتها على السياق التاريخي الذي يحددها. فهذا السياق، الذي كان يقدم من الستينيات بوصفه معطى تافها غير ذي بال وغير علمي، قد أضحى أفقا أساسيا من جديد. فمنذ منتصف السبعينات، لم تعد التاريخية تطارد كآفة من الآفات مثل ماحصل لها في أوج مرحلة البنوية، ومايبعث على الدهشة أكثر هو أن عودة التاريخية قد حصلت في صلب المجال الذي قضى ببطلانها وفسادها: اللسانيات والسيميائيات.

إن عودة وجهة النظر التاريخية هذه لايمكن أن تكون نفس الوجهة التي كانت سائدة قبل المرحلة البنوية، فالتاريخية المقصودة ههنا تقترن بأزمة معنى التاريخ المحدد بوصفه تقدما. فمنذ الفتوحات البنوية، لم يعد ممكنا النظر إلى البشرية بحسب ترسيمة القبلية antériorité أو بحسب ترسيمة المراحل التي تفضي بها إلى المرتبة العليا من الإكتمال، ذلك أن الفكر البنوي قد فرض نهائيا فكرة تكافؤ النوع البشري منذ أن وجد.

في مجال الشعرية، فتح جيرار جنات G.Genette النص على البعد التاريخي بتبنيه مفهوم «عبر النصيّة» Transtextualité المحدد بكونه كل مايقيم علاقة صريحة أو ضمنية بين نص ما ونصوص أخرى [2] وهذا المفهوم يترتب عنه الإنفتاح التاريخي الأوسع، حتى وإن انحضر ذلك في مجال الأدب.

إن جيرار جنات قد دشن حقلا جديدا هو حقل التفكير الأدبي وفتحه على أنواع الخطب وأشكال التلفظ والأجناس الأدبية التي ينتمي إليها كل نص من النصوص وهكذا تنقل «النصية الجامعة» Architectualité عمل الناقد من مستوى الوصف البنوي صوب البحث عن النماذج وأنواع الخطابات وأشكال المحاجه المختلفة. وهذه النمذجة يجب أن تسعى إلى الإبانة عن تنوع الأجناس في صلب تاريخية هذه الأنواع وهذه الأشكال. ومن ثم فهي تستلزم إذن ارتباطا جديدا بالتاريخ.

إن هذا الإنفتاح على الحقل التاريخي أكثر وضوحا عند أحد الدارسين الشعريين رفيق. ج جنات: عنينا به ت. تودوروف T.Todorov الذي لم يكتف بفتح أفقه على التاريخي فحسب، بل اخترق كذلك التخوم الأدبية ليعالج بشكل أوسع مجال الايديولوجيات، فتودوروف يتجاوز تصور الشكلانيين الروس، هذا التصور الذي يزعم أن اللغة الشعرية مستقلة ومنفصلة عن اللغة الممارسة يوميا، ومجردة من كل تكييف تاريخيي. فعلى عكس هذا، يعيد تودوروف للأدب وظيفته التبليغية ومن ثم يعتبره إحدى الوسائل المفضلة التي بفضلها يمكن للناس أن يتقاسموا القيم ورؤى العالم. إن البعد التكويني génetique الذي انتصر له أولئك الذين ـ على غرار لوسيان غولدمان L.Goldman ـ رفضوا التخلي عن الأفق التاريخي، قد فرض في خاتمة المطاف نفسه بشيء من التأخر.

وقد أدى هذا إلى إنشاء معهد النصوص والمخطوطات الحديثة I.T.E.M في 1982 يضم فريقا كاملا لاينفك يأخذ في الاغتناء، وهو مكون من مختصين في الأدب، ينكبون على ما اصطلحوا عليه بـ «النقد التكويني الداخلي والخارجي للنصوص الأدبية» [3]

وهذا المعهد التابع للمركز الوطني للبحث العلمي C.N.R.S يشتغل في شكل صاروخ ذي عدة طوابق، إذ هناك التكوينية النصية التي تُعْنى باستعادة «البعد الثالث» للنص المطبوع، كما تعنى بسيرورة تبلوره وكذا بالحركية الخاصة بالكتابة: وهذا يتطلب منها الاضطلاع بالنصوص وماقبل النصوص والمسودات والمراجع من حيث ماديتها matérialité، وتصنيفا لها إنطلاقا من بعض القرائن والآمارات. لقد نشر لويس هي L.hay في 1979 كتابا هو عبارة عن برنامج عمل عنوانه: «دراسات في النقد التكويني»[(4)] سعى فيه إلى جعل العديد من المختصين من شعريين Poéticiens ومحللين نفسانيين وعلماء الاجتماع النقدي يتحلقون حول نفس الموضوع المخطوط manuscrit Le. وقد تجاوزت الأبحاث هذه إطار الدراسات الأدبية بانفتاحها على تساؤلات حول فعل الكتابة نفسها، الذي يستدعي تظافر جهود علماء الأعصاب، وعلماء الأعصاب النفسانيين والمشتغلين في نظرية المعرفة ودارسي المخطوطات.

وهذا هو الوجه الثاني لتوالد هذه الفرق البحثية مع المرحلة البنوية والإرادة في تخليص النقد الأدبي من عزلته وجعله يتواصل مع التخصصات الأخرى التي غالبا ما يتعذر استشعارها. إن هذا النقد التكويني الجديد ليمكِّن من تجديد قراءة النصوص وذلك بإجراء وإبراز السيرورات التي أفضت إلى إنتاجها وصياغتها. فهو، من هذا الباب، قد ساهم في هذه الرجّة الكبرى التي أحدثتها القطيعة البنويّة في سعيها إلى إستقراء أشكال المنطق الأخرى التي تسري في النص، غير ذلك المنطق المتمثل في الخطية Linéarité (أي تسلسل الكلام بشكل خطي رتيب).

## استيعاب البرنامج

لئن كانت البنويّة قد أخذت في الإختفاء من الأفق النظري منذ 1975، فإنه لاينبغي أن نحكم عليها بأنها قد تجاوزت مرحلة الاحتضار.

صحيح أن إنحرافات كبرى قد أصابت المَثَل البنوي Paradigme أو زعزعته أيما زعزعة، بيد أن الطموحات المبالغ فيها لم تعد واردة وأن التواضع أمر مطلوب. أنه ليتعين علينا أن ننزل هذا المثل في تاريخيته حتى نقوى على التمييز بين ماهو من قبيل العرضي الظرفي وماهو من قبل الإجابة ذات الغاية العلمية في فترة بعينها، كما ينبغي علينا حصر الطفرات الضرورية التي حصلت بفضل الزخم النظري الذي وسم المرحلة البنويّة.

إن تاريخ المثل الفاتح المظفر إنما يخضع لمجرى زماني يقفز به الى القمم الشامخات ثم يهوي به إلى الثرى كي يستسلم لمجرى التاريخ البطئ الصامت، لايجب علينا إذن أن نعتقد بأن هذه الجلبة كانت عديمة الجدوى وأن الأنوار الاصطناعية لم تكن سوى مجرد سراب.

إن مابقي من هذا كله هو صورة لمرحلة غنية ومثمرة جدا ومكاسب قد غيّرت ـ لفترة طويلة ـ رؤيتنا للعالم كما غيّرت شبكة قراءتنا. إن هذا البعد لاينتمي إلى مجال الموضات العابرة اللافتة للأنظار. بل هو من قبيل وظائف التمثل والاستيعاب في مجال تطور العلوم الاجتماعية، فالعودة إلى البنويّة يجب من حيث هذه الوجهة، أن تتحاشى ماكان يدعو إليه التوسير Althusser بناء على نصيحة لينين عندما كان يهيب بالتفكير في الحالات القصوى. بل على عكس ذلك، إن ضربات هذه العصيّ المعوجة من هذه الجهة (= البنى وحدها) وضرباتها من الجهة الأخرى (= الفرد وحده) لها مساوئ جمّة تتمثل في كونها لاتحيط بما هو أساسي وجوهري: أي التفاعل بين الجهتين أو الطرفين وعدم الاعتراف بمزايا المرحلة السابقة، التي هي منطقة غامضة

معتمة مجهولة عن قصد كي يلقى عليها حجاب النسيان، ومن ثم التوجه بكل حرية صوب الاتجاه المعاكس مع مايصحب ذلك من إرهاب فكري سبق أن طغى في الفترة السابقة.

لذا يجب أن نأمل - بمعيّة مارك غيوم M.Guillaume - الدخول في دور العهد الجيولوجي للعلوم الاجتماعية وقد استأنست بالعلوم الدقيقة» [5] حينئذ تكون العلوم الاجتماعية قد شاهدت - مع البنويّة - أول طبقة تراكمت منذ طبقة أ. كونت A.Comte وهذا الأمر في حد ذاته ذوبال.

وإذا نحن نظرنا إلى البنويّة بمعزل عن آثار الموضة اللصيقة بها، فإننا سندرك بأنها لاتزال ذات أثر بيّن وتسري في كثير من البحوث من جميع المجالات: «أنها ظاهرة ذات طوابق» على حد تعبير م. غوشي M.Gauchet.

## ذهنية مزمنة

حقا إنه يجب علينا أن نميز بين الظاهرة البنويّة بحسبانها إغواء لبرنامج يسعى إلى توحيد حقل العلوم الإنسانية، والمناهج الخاصة التي نابت عن هذا الأمل في كل مجال من المجالات العلمية، وفق موضوعه وموقعه الخاص في الحقل العام للجامعة والبحث مع ظواهر التنافس الحقلي والمعارك التي تنشب من أجل تبوأ الزعامة والهيمنات المؤقتة ومراكز الريادة والتحالفات التكتيكية التي جعلت الميدان الجامعي يتحول إلى معترك تتصارع فيه الإنسانيات، والعلوم الاجتماعية وبين الحداثة والتقليد، فمن حيث وجهة النظر هذه، تميزت البنويّة بالمعركة التي جسدتها بالنسبة الى التاريخ الفرنسي كله للنصف الثاني من القرن العشرين:

«هناك ذهنية بنويّة تبدو لي بمثابة مكسب دائم تقترن عندي بمكسب القرن كله، ولاعلاقة لهذه الذهنية بالإخفاق المحلي أو بإستنفاذ النماذج البنويّة التي تم تسخيرها في المجالات الخاصة» [6]

وعلى نحو غامض، وإن بشكل أعمق، فإن هاجس الدقة والرغبة في الإحاطة، بالأنساق أو النظام الدالة، يحدو العمل الفكري المعاصر، وهذا لدليل قاطع على الإستيعاب البين للمطلب البنوي، حتى لدى أولئك الذين يستشعرون الحاجة إلى رفض هذه المرحلة والتصريح بموتها المبرم.

إن إدغار موران E.Morin الذي حارب منذ البداية النجاح البنوي الذي نعته بالسراب - من حيث زعم البنويّة المشتط الداعي إلى تذويب الإنسان في مقولات-ترى بأنها علمية - يعترف على أحد المستويات ببعض فضائل المثل البنوي الإبتسمي، وفي هذا الباب، يقرّ موران بمكاسب ثلاثة لهذا التيار الفكري: تشديده على فكرة البنية والنقد الجذري للوغوس Logos الغربي (= العقلانية الغربية) وأخيرا تأسيسه للرمزي باعتباره من أمهات الأنساق والأنظمة [7] وهكذا تمضي الموضات، موضع دراسة البنويّين المفضل، ولكن البنويّة تظل قائمة بحسبانها أفقا نظريا عظيما بالنسبة إلى العديد من الدارسين.

هذا ويبيّن تنوع استخدامات المنهج البنوي من قبل تخصصات ذات الموضوعات المختلفة جدا، ومن قبل باحثين يوجدون في مواقع ايديولوجية متضادة كل التضاد مثل جان ماري بونوا J.M.Benoit الليبرالي وموريس غودليي M.Godelier الماركسي، قلنا يبين هذا التنوع بأن دفن البنويّة الصاخب لايجب أن ينسينا الخصوبة الخفية الباقية في هذه الثورة التي حصلت في صلب العلوم الإنسانية، والتي أضحت مكسبا لايتحدث عنه بعد أن حصل الاستيعاب والتمثل.

# الهوامش:

* ترجمة لدراسة الأستاذ

10, Octobe 1991, pp 12-15:F.dosse, que reste-t-il du structuralisme? in Revue Sciences Humaines n

(1) – أ. رونو، حوار مع المؤلف.

(2) – G.Genette, Palimpsestes, Ed. du Seuil, Paris, 1982, p 7

(3) – I.E.T.M: Institut des Textes et Manuscrits Modernes.

(4) – L. Hay, Essais de critique génetique, Ed.Flammarion, 1979

(5) – مارك غيوم، حوار مع المؤلف

(6) – مارسيل غوشي، حوار مع المؤلف

(7) – E.Morin; Ce qui a changé dans la vie intellectuelle Francaise, in Revue le Débat, Mai, 1986, pp 72-84.

(8) – Menier, Les réussites et les patiences de C.Lévi-Strauss, in le Monde du 27.05.1983.

(9) – Héritier-Augé, L'exercice de la parenté, Ed. Gallimard. Le seuil 1981.